أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله
صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل بين رمال الدنيا **فصل** اعلم أن
الأخلاق الحميدة تكون غريزة ومكتسبة ومع الاكتساب لا بد أن يكون في أصل الجبلة
شعبة من أصولها فتكون جالبة لتتميمها ثم إنها تكون دينية إذا أريد بها وجه الله ولكنها تعد
محاسن على كل حال باتفاق العقلاء وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محبوبا على كمالها مجبولا
على كمالها عليها في أصل خلقته وأول فطرته وكذلك سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم
لم يحصلوها بممارسة ولا رياضة بل بجود إلهي وخصوصية ربانية قال القاضي عياض
رحمه الله تعالى وقد نجد بعض الخلق يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها ويولد عليها
فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالى كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان
على حسن السمت والشهامة وصدق اللسان والسماحة وكما نجد بعضهم على ضدها
فبالاكتساب يكمل ناقصها وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ويعتدل
منحرفها وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها فكل ميسر لما خلق له ولهذا
جبر ذكرها مفصلة نبينا صلى الله عليه وسلم **فصل** في علمه وحلمه
واحتماله وعفوه وصبره صلى الله عليه وسلم أما العلم فقال الله تعالى وأنزل
الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال
تعالى وقل رب زدني علما كلت الألسن عن وصف ما منحه من العلم وأمر بسؤال
الزيادة عليه وقال فأوحى إلى عبده ما أوحى قال القاضي رحمه الله ولما كان
ما كان شفه صلى الله عليه وسلم من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا
يحيط به العبارات ولا تحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة
على التعظيم فقال فأوحى إلى عبده ما أوحى وقال في قوله تعالى لقد رأى من آيات
ربه الكبرى قال المؤلف كان الله له وإذا أردت أن تعلم مكانته صلى الله عليه
وسلم من العلم فانظر إلى ما تضمنته شريعته من الأصول والفروع ودقائق الأحكام وأسرار
المعاني التي حجبت الحكمة في كنهها ولزم الخلق الانقياد لها والتسليم فقال

تعالى

تعالى
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا
تسليما إلى علمه صلى الله عليه وسلم بكتب الله القديمة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وفنون
العلوم الثابتة كالعبارة والطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك مما قدمنا
الإشارة إليه في باب المعجزات وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة والصبر
على ما يكره ومعانيها متقاربة وهي مما تلقاها صلى الله عليه وسلم عن أمر ربه بالقبول
والإقبال وبلغ فيها أعلى درجات الكمال فقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين **روي** أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه سأل
جبريل عليه السلام عن تأويلها فقال له حتى أسأل العالم ثم ذهب فأتاه فقال يا محمد إن
الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال تعالى
واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور وقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من
الرسل بغير خاف على من تأمل أحواله وأقواله وحققها معرفة أنه صلى الله عليه وسلم
قد نزل من هذه الأخلاق منزلة لا ترتقى وامتطى منها مطية لا تمتطى وأنه كان
لا تستخفه كثرة الأذى ولا يطيش لجهلاء ومن بعض كلام عمر بن الخطاب
الذي بكى به النبي صلى الله عليه وسلم بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح
على قومه فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا
من عند آخرنا ولقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول
إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون **فصل**
وأما جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته صلى الله عليه وسلم وبين هذه
الألفاظ فروق لطيفة ويجمعها بذل المال على وجه التكرم وغير مذموم أن النبي
صلى الله عليه وسلم قد خص من هذه الخلق بأتمها وأعمها وما سئل شيئا قط فقال
لا وأنه يهب الإحسان بجوده وعطاياه في يوم حنين لمائتين من الإبل وزاده على
هوازن يوم غنيل سباياها وكانت ستة آلاف رأس وأعطى العباس عمه من الذهب
ما لم يطق حمله وأعطى رجلا غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال أسلموا فإن محمدا

Copyright © King Saud University